
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

لماذا كتابة التاريخ

د. محمد الطاهر الجراري

انطلاقا من مبدأ أن الحقائق مقدسة والرأى حر ، يجب الايعير التاريخ اى اهتمام الا للحقيقة المطلقة ، فعندما نؤرخ لأية مرحلة من مراحل تاريخنا – ولتكن مرحلة الجهاد الليبى ضد الأيطاليين – فأن كتابتنا يجب ان تكون من الموضوعية حيث يقدر صدقها ويحترمها أى منصف سواء أكان طرفا فى النزاع كالعربى الليبى والأيطالى او غير طرف كالأنسان الواعى فى أى مكان ، ذلك لأن ماقمنا به فى الواقع لم يكن الا ابرازا للحقيقة التى كانت – ولاتزال – مثلا انسانيا أعلى .

هذه هى حقيقة عمل المؤرخ ، لكن هناك سؤالان اساسيان هما : هل بوسع كل مؤرخ ادراك هذه الحقيقة والتعبير عنها ؟ وهل كل ماكتب عنا او عن غيرنا يمثل هذه الحقيقة ؟ السؤالان بحاجة الى اجابة وستكون الأجابة مطولة بعض الشئ . فليعذرنا القارئ فى ذلك اذلامناص عنها .

فعلم التاريخ من اقدم العلوم ، وقد بدأ على هيئة يوميات او تسجيل زمنى لأهم احداث الحضارات الشرقية القديمة ، وقد حاول علماء بابل تطوير هذا العلم بتأليف ملحمة قلقميش التى حاولت ان تربط بعض الأحداث وتعللها ، وكعادة اليونان فى كل ماتعلموه من الشرق قاموا بتهذيب علم التاريخ وتطويره ، فألف هومر الالياذة والأوديسه على نمط قلقميش وكتب سكيلاكس اليونانى خلال القرن السادس قبل الميلاد وصفا لرحلته الى الهند والخليج العربى وشرق شبه الجزيرة العربية ، وقد انجبت الحضارتان اليونانية والرومانية الكثير من المؤرخين الذين ساروا – تقريبا – على النمط نفسه ، أى النمط التقليدى التسجيلى للأحداث . وبعد انشاء الدولة العربية الاسلامية حافظ غالبية مؤرخيها على المدلول اللغوى لكلمة التاريخ او التسجيل الزمنى للاحداث . وللحقيقة فان عنصرا جديدا قد أضافته الحضارة

العربية الى علم التاريخ وهو عنصر الاسناد الذى اوجدته ظروف دينية معروفة ، فقام المؤرخون بالاستفادة منه الى ابعد حد . ولعل هذه كانت البداية للمدرسة التاريخية الحديثة .

وخلال القرن التاسع عشر فتن المؤرخون الأوربيون بما اسموه بالحقيقة المجردة التى لاتختلف فى الواقع عن النظرة التسجيلية القديمة للتاريخ ، أى انهم اعتمدوا على مقولة الحقائق تتكلم ، فلترتب الأحداث أو الحقائق وستقوم هى بالافصاح عن نفسها للقارئ ، — دون تأويل المؤرخ .

هذا النظرة اختلفت تماما خلال القرن الحالى حيث لم يصبح دور المؤرخ مقصورا على تسجيل الاحداث بل يتعداها الى تقييمها ، فلم يعد الحدث مهما فى حد ذاته ولكن بقدر مايستنتج منه من نتائج او تأويلات وهكذا بدات الفلسفة تدخل التاريخ . اصبح الاهتمام ليس بالماضى فقط ولكن بفلسفة الماضى . الحدث مهما كان حقيقيا غير ذا قيمة فى حد ذاته بل تأتى اهميته فيما يكمن خلفه من آراء . ولكى نفهم الماضى نحن لانحتاج فقط الى رص للحقائق التى لاتكون الا الجسد ولكى نعطيها الحياة لابد لنا ان نغوص فى الافكار التى خلقت هذه الحقائق وهذا لايتأتى الا بالاستنتاج وتقليب الرأى والتأويل . كانت مهمة المؤرخ فى القرون السابقة ان يسجل بأمانة ودقة اكبر عدد ممكن من الأحداث ، أما فى العصر الحديث فان الأحداث لا تؤخذ الا بالقدر الذى تقتضيه ظروف التحليل والتعليل . الفرق اذا واضح بين المدرستين القديمة والحديثة لكن هناك عنصرا مشتركا بينهما ، فقديما وحديثا يملك المؤرخ حق اختيار الحدث المناسب للموضوع والهدف ، فالمؤرخ الذى سجل احداث عهد حمورابى او نبوخذ نصر او رمسيس او شيشنق او غيرهم لم يذكر بالتأكيد كل ماحدث فى ايامهم ، لكنه اختار ما اعتقد انه يمجد او يحقر صاحب الشأن ، والذى نعرفه عن الحضارة اليونانية هو ما ارادنا المؤرخون الأتينيون ان نعرفه عنها ، لأنهم وحدهم الذين قاموا باستعراض احداث بلاد اليونان

ودونوا ما رأوه جديرا بالتسجيل . وهذا القول ينطبق على تاريخ كل الحضارات القديمة والحديثة تقريبا ، فلقد فسر اليهود الانجيل والتوراة بالطريقة التى اعطتهم الوضع الممتاز الذى يتمتعون به فى العالم المسيحى حاليا . وهكذا الحال بالنسبة لكثير من الحقائق التاريخية المتداولة عندنا حاليا والتى اتتنا اصلا عبر قنوات اوربية .

قد يقول البعض أن مابين أيدينا مدعم بوثائق ونقوش وغيرها من العلوم المساعدة للتاريخ وهذا صحيح ، لكن من الذى اختار هذه الوثائق والنقوش وغيرها ؟ . . انه المؤرخ الذى يريد عامدا أو غافلا أن يبرز نقطة ويخفى اخرى ليؤكد حقيقته التاريخية التى يعتقد انها الصواب . ليس فى التاريخ - كما ليس فى غيره من العلوم - حقائق ثابتة معترف بها من الجميع . فالأستمرارية والأحكام المطلقة لايجب أن تكون صحيحة فى التاريخ كما انها غير صحيحة فى العلوم الاخرى . قد يسجل شخص ما حادثا بسيطا فى مفكرته أو فى احدى الصحف السيارة ، فيأتى كاتب بعده يأنف من ادخاله فى صلب موضوعه بل يستشهد به فى الحاشية ، ثم يأتى ثالث يدخل الحاشية فى الصلب ورابع يضيف اشياء اخرى لتأكيدها ، وهكذا حتى تصبح حقيقة تاريخية معروفة . وبمرور الزمن ربما تتضح جوانب أخرى من الرؤية ، فتغفل الأولى وتستجد أخرى وهكذا ، فالتاريخ اجتهاد لمعرفة الحقيقة ، جاء نتيجة لجهد شخص ذى ميول نفسية خاصة وعقلية خاصة وخلفية حضارية خاصة ، يحتكم الى عقله فيما يؤرخ من الأحداث ، يختار منها مايروق له ومايتمشى مع فلسفته التى كونتها تربيته ، وعليه فان عنصر الذاتية قائم فيها الى حد كبير . الحقائق التاريخية عبارة عن أسماك تسبح فى محيط واسع من الأحداث وما يصطاده المؤرخ يعتمد بدرجة كبيرة على اى جزء من المحيط اختار الأصطياد فيه ، وأى نوع من الخبرة استعمله لاصطياد السمك وهذا كله يعتمد على نوع الأسماك التى يفضل اصطيادها . التاريخ فى زماننا يعنى تحليل

الحدث وهذا بالضرورة خاضع لعقل المحلل الذى سيصبغ الأحداث بالطريقة الخاصة به .

هذه نقطة وهناك نقطة ثانية تتصل بخيال المؤرخ الذى يجب ان يكون من السعة بحيث يصبح قادرا على التعمق فى عقلية الشعوب التى يدرسها وعلى الغوص فيما وراء الحدث . مؤرخ العصور الحديثة عليه الا" يحكم على احداث العصور الوسطى او القديمة بعقليته هو ، وفى داخل المرحلة الحديثة على المؤرخ ذى «الخلفية» العربية الاسلامية الايحكم على احداث الحضارات الأخرى بخفيته هو الحضارية بل عليه أن يكون ذا خيال واسع يمكنه من تجاوز وضعه الخاص والالتحام بالشعوب التى يتحدث عنها حتى يستطيع ان يحكم على تصرفاتها من خلال رؤياها هى الخاصة وليست رؤياه هو . وفى هذا عسر لايدركه الا من قام بدراسة بعض الكتب التى كتبها الأوربيون عن الحضارة العربية الإسلامية .

اما النقطة الثالثة فهى ان المؤرخ ابن زمانه ، ولايستطيع مهما حاول أن ينزع نفسه من عمره ، حتى كلماته تكون ذات مدلول يختلف عن مدلولها فى العصور السابقة له ، فكلمة ديمقراطية عندما نطقها صولون أو بيركليز فى العصر اليونانى تحمل ايحاءات تختلف عن الايحاءات التى قصدها بها قيصر او كركالا فى العهد الرومانى غيرها فى العصور الوسطى المسيحية او الاسلامية ، غيرها فى العصور الحديثة ، بل هى فى العصر الواحد تختلف من شعب لآخر ، فكلمة الديمقراطية فى امريكا غيرها فى روسيا غيرها فى الجماهيرية وهكذا .

اذا ،نحن امام علم حى يتم فيه التفاعل بين الماضى والحاضر عن طريق وسيط ثالث هو المؤرخ ، افتراض الموضوعية واجب ، لكن لابد لنا من اخذ الاعتبارات

السابقة فى الحساب ، فالانسان (المؤرخ) ابن بيئته الجغرافية والاجتماعية والعقائدية ، ومهما حاول المرء أن يتجردمن ذاته ، فإن التراكمات السابقة لن تطاوعه لأنها أقوى من ارادته . ولعل من سداد الراى ان يلتفت العاقل الى تقليب ما كتب الآخرون عنه وان يحاول ان يقلبه بشك حتى يصل لليقين .

واخيرا فانه قد يؤخذ مما سلف ان لاموضوعية فى التاريخ وان التاريخ عبارة عن قصقصة والصاق لتكوين الشكل المطلوب ، وذلك غير صحيح على الاطلاق ، فظهور الجبل بأشكال متعددة وفقا لموقف الناظر لايعنى مطلقا عدم وجود حقيقة ثابتة للجبل ، وهناك من الضوابط المنطقية «والأكاديمية» ما يجعل التاريخ عبادة صادقة للحقيقة ، ولكن حتى تتجدد الفرصة للتدليل على ذلك أقول ان نقطة انطلاقنا فى هذا الحديث كانت لماذا يجب ان نعيد كتابة تاريخنا . ؟

د. محمد الطاهر الجرارى